حقيقة الموت في القرآن 2.5.2025

أتممت صلاة الفجر وقد عزمت على البدء باستكمال تحضير خطبة الجمعة في قيمة من قيم الإسلام الحضارية ، أخذت الهاتف وإذ برسالة مفادها

(عبدالقوي توفاه الله نريد قبرا)

توقفت الحياة للحظات ومر أمامي شريط من المواقف والذكريات ، للحظة لم استوعب خبر الموت الذي ما من مسلم إلا ويؤمن به يقينا لكنها الغفلة التي أحاطت بالقلوب وأغشت العيون فأصبحنا نظن أننا مستثنين من الموت الذي نراه كل يوم في أرض غزة

وُضِع الرجل العالم الداعية في الكفن وصلي عليه صلاة لا ركوع فيها ولا سجود ، ووسد في اللحد ، وأهيل عليه التراب ، ثم انصرفنا وتركناه ، ظل وحيدا وهو يسمع قرعات نعالنا وصوتها يبتعد وينتهي **يا الله انتهت الحياة** بجاهها ومالها وملذاتها في تلك الحفرة المظلمة ، وكان حديث النفس غدا سأُترك لوحدي هناك

عم الحزن وترقرق الدمع في العين لأنها مصيبة الموت كما سماها القرآن

(فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ)

مصيبة لأنها تأتي فجأة ،

وهذا جزء من اختبار الله لعباده في الدنيا ، لا أحد يعلم موعد المغادرة ولا زمانها ومكانها **(وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ)**

تلك الساعة التي كتبها الله قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة **ثم** كتبتها الملائكة في التقدير العمري حين كنا أجنة في الشهر الرابع في رحم الأمهات ، ومن تلك اللحظة بدء العد التنازلي ، بدء السير نحو القبر ،

كل عام ينتهي يحتفل أحدهم بعيد ميلاده

وينسى أنه اقترب عاما كاملا من لحظة الموت من اللحظة الحاسمة للانتقال إلى الدار الأخرة والمسكن الأبدي

إن وفاة الأحبة والأصدقاء والأقارب

إن لم توقضنا وتخرجنا من دائرة الغفلة وتذكرنا بأننا بضاعة موت فإن قلوبنا قد ماتت ،**الغفلة التي**

وصلت عند البعض إلى مستوى أنه يتحاشى ذكر الموت وينسحب من مجلس يذكر فيه بالموت ويعترض على المتحدث إذا ذكره بالموت وهذا الفرار النفسي من الموت أشار إليه القرآن (قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

وفي آية أخرى (قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا)

ثم صور لنا القرآن :

مشهدا أخر سماه بالتحايد جاء في قوله تعالى (وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ)

والحقيقة أنه لن ينفع الفرار ولا التحايد وستأتي قريبا ساعة الانتقال للدار الأبدية ، وستذهب أنت لتلك الساعة بقدميك وستبذل المال والجهد لتذهب للأرض التي كتب فيها أجلك (قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ)

لأن الأمر ليس بيدك وأنت لا تملك القدرة على التأجيل ولو للحظة واحدة ألم يقل الله (وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ) ،

هذا التأجيل عجز أمامه الملوك وأرباب الأموال الذين تحصنوا بالحصون والقصور والحراسة المشددة غافلين عن قول الله (أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ)

اخوة الإيمان : لقد صور لنا القرآن مشاهد الخلق في تعاملهم مع الموت

حدثنا القرآن أن من الناس من كره فريضة الجهاد لأنه يظن أنها تقربه من الموت (وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ)

وكل واحد منا

يحفظ قصصا لمقاتلين تمرغوا فوق جبهات الشظايا وزحفوا تحت قصف الطائرات وواجهوا العدو في المتارس الأولى ، ثم خرجوا دون أن يصابوا

بجرح واحد وتعمروا بعد ذلك سنوات طوال ،
وأن الأجل حين لم يحن دمر البرج في غزة وطار الطفل عشرات الأمتار ووجدوه سليما معافى في سطح عمارة أخرى ،
وأن خالد بن الوليد سيف الله المسلول بعد مائة معركة عسكرية في مواجهة مباشرة مع العدو من نقطة الصفر جاءه الموت على فراشه
وفي المقابل .. كم من أناس أصحاء أشداء داهمهم الموت فجأة وهم فوق أسرتهم وفي قمة صحتهم

ومن الناس جهلا بحقيقة الموت
إذا ذكر له أن فلانا مات في سبيل الله يشعر أن الله أنعم عليه بالعقل حين لم يجاهد لأنه حمى نفسه من الموت ،
وهذا كان تفكير عبدالله بن أبي حين حكى الله قوله (**وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا**)

وكأن أمر الموت بيده وبقاءه راجع لذكائه

إخا الإيمان : حين تتأمل حقيقة الموت وترى أجيالا تطويهم الأرض في طياتها وأنه قبل مائة عام لم أكن أنا موجود وبعد مائة عام كلنا في الأغلب لن نكن على قيد الحياة ، وسيكون في هذا المكان والمسجد خلق غيرنا ، **ومع ذلك نعيش حالة من التناقض** بين عقيدة الموت وسلوك الحياة

وهذه المفارقة أشار إليها القرآن حين تحدث عن قرب الاجل مقابل الاستمرار في الغفلة (**اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ**)

وإذا تدبرنا القرآن بحثا عن سبب هذه الغفلة سنجد أن أهمها سببان :
السبب الأول : التأجيل والتسويف
غدا سأعمل وبعد غد سأصلح ومن الصباح سأتوب ، أنا لزلت صغيرا ولازال في العمر متسع ، ثم نتفاجأ بملك الموت واقفا فوق الرأس ليأخذ الروح
ولقد حدثنا القرآن عن ثلاثة مشاهد أو يمكن أن نسميها أمنيات يتمناه العبد عند الموت ونزول ساعته

المشهد الأولى : تمني العودة للعمل الصالح الذي أجله ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ فلماذا ننتظر حتى يأتي الموت ، لماذا لا نعمل الصالحات من اليوم ونعزم على فعلها من اللحظة

المشهد الثاني : تمني العودة لأداء عبادة الصدقة ومرافقة الصالحين

﴿وَأَنفِقُوا مِن مَا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾

فهل سنتردد في قرار الصدقة والعطاء والانفاق بعد اليوم ، وهل سنغير الرفقة السيئة ونبحث عن الصالحين للحياة معهم قبل أن يزورنا ملك الموت

المشهد الثالث : تمني العودة للتوبة والاستغفار

﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ﴾

فلا تقبل التوبة في لحظات الموت الأخيرة **والتوبة أهم معالمها** أن تكون قرارا فوريا عاجلا ، بعد الذنب والمعصية لا تأجل التوبة ولو لثانية واحدة

وللأسف أن هذه الأمنيات الثلاث تواجه بالرفض لأنها تجاوزت الموعد النهائي للقبول ، لأنها قدمت بعد فوات الأوان ﴿كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾

السبب الثاني : التنافس على الدنيا الملهي عن الأخرة ، فكلنا نعيش في هذه الحياة سباقا على المناصب والمساكن والسيارات والملابس والشهرة والسلطة ، ولا ننتبه إلا ونحن على حافة القبر

ولقد نبه القرآن إلى هذا الحال

بأية قصيرة ولفظ موجز حين قال :

﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ وصف الله الحياة بحفلة تكاثر تنتهي عند أول ليلة في

القبر، وحينها يكتشف أحدنا **أنه** نجى وفاز **أو أنه** ضيع حياته المستقبلية مقابل حياة فانية ،

ولقد أشار القرآن إلى هذا التكاثر الملهي في قوله

(اعلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ)

فمن أراد النجاة فليجعل الحياة الدنيا مزرعة للأخرة ويبني حضارة الدنيا بهدي السماء المنجي في الأخرة

ولا ينسى أبدا أن الأخرة أبدية وأن الدنيا مؤقتة فمن قارن المؤقت بالأبدي سيدرك أن الدنيا لا قيمة لها أصلا ،

بل أن الله في القرآن لم يذكر الدنيا ضمن مراحل الحياة وتأمل قوله سبحانه

(مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ)

وهذا الطبيعي حتى في القياس المادي فمائة سنة لمن طال عمره لا تساوي شيء أمام : لا نقول ألف سنة ولا مليار سنة ولكنها حياة أبدية لا نهاية لها

هذا المعنى يوجب علينا أن نعمل في الحياة المؤقته من أجل الحياة الأبدية ، إذا قيل لأحدنا ستسكن في مدينة خمس سنوات ثم ستنتقل إلى مدينة أخرى للسكن فيها خمسين سنة ، ستجده في مدينته الأولى مقتصد في صرفياته ، لن يبني بيتا لن يؤسس عملا ثابت ، بل كل ما سيجنيه سيحوله إلى المدينة الأخرى التي سيعيش فيها ، هذه مقارنة بين خمس وخمسين فما أنت فاعل مع حياة أبدية فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر

أخا الإيمان

كلما حصل الموت ووضع أحد الأحباب والأقارب في القبر ،لا بد أن ندرك أمرين :

أولا : أن هذه رسالة ايقاظ من الله لك

فالميت قد أفضى إلى ربه وأنقطع عمله إلا من ثلاث (**صدقة جارية علم ينتفع به ولد صالح يدعو له**) **لكن الفرصة بالنسبة لك** لازالت قائمة فأعد إجابة لأسئلة القبر الثلاثة : ،

من ربك : والاجابة بأن تصحح علاقتك بالله

طاعة لأمره وانتهاء عن نهية ،

من نبيك : والاجابة بأن تجعل الحياة كلها على هدي رسولك اتباعا لأمره واقتداء بهديه وتحكيما لشريعته ،

ما دينك : والإجابة بأن تعيش الحياة بالإسلام وللإسلام نصرة ودعوة وجهادا وتربية

ثانيا : أن تصنع الأثر الطيب بعد موتك ،

أن يشعر الناس عند سماع خبر موتك بالألم لفقدك يتذكرون

صلاح عملك وحسن قولك وجميل فعالك ،

فالمؤمنون شهود الله في الأرض

وصناعة الأثر

قضية مرتبطة بالموت والبعث وتأمل قول الله

(إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ)

والآثار هي ما سنه الإنسان في حياته

من سنة حسنة أو سيئة وبقية في عالم الناس يتداولونها ويعملون بها في حياتهم

ومن أجمل نماذج صناعة الأثر

الذي أحدث تغيرا في الحياة ما فعلته أم الإمام أحمد بن حنبل الذي مات أبوه وهو طفل صغير فقامت أمه على تربيته فنشأته على حب الله ورسوله وحب العلم

كان يقول : حفظتني أمي القرآن وأنا ابن عشر سنين وكانت توقظني قبل صلاة الفجر وتسخن لي ماء الوضوء في ليالي بغداد الباردة وتلسبني ملابسي وتتخمر وتتغطى بالحجاب وترافقني للمسجد للصلاة وطلب العلم ، **وبهذا تكون أمه قد صنعت أثرا جليلا في الحياة** بتربيتها لإمام جليل صاحب نهضة فقهية حديثية وكل ما قدمه أحمد بن حنبل في ميزان حسنات أمه التي أحسنت تربيته ليصبح علما طاف الدنيا مرتين ليجمع المسند

وخذ لك زادين من سيرة

ومن عمل صالح يدخر

وكن رجلا إن أتوا بعده

يقولون مر وهذا الأثر

إخوة الإيمان : في لغة الماديين من العلمانيين والليبراليين وغيرهم ستجد من يقول : أن استحضار الموت واليوم الأخر يصرف الناس عن بناء الحضارة ويشغلهم عن إقامة الدولة ومؤسساتها فلابد من تحيد الموت حتى نستطيع البناء بعيد عن الضغط النفسي لفكرة الرحيل والمغادرة ؟

وسنجد في القرآن الرد على هذه المقولة :
ببيان أن استحضار الموت واليوم الأخر هو الذي يدفع الإنسان للعمل الصالح المثمر

وتأمل هذين النموذجين

الأول : في العبادة ، لما ذكر الله الصلاة وهي رأس العبادات ذكر أنه لا يطيقها إلا من يوقن بالموت ولقاء الله (**وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ**)

والثاني : في الجهاد ومواجهة العدو
لما ذكر الله تخاذل جنود طالوت بين أنه لم يقف ويثبت معه إلا من امتلأت قلوبهم باليقين بلقاء الله (**فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ**)
فلم يصبر في مقام الجهاد إلا من أيقنت نفوسهم بحقيقة الموت واليوم الأخر

ولكم قرأنا وسمعنا مفكرين متأثرين بالفكر الغربي يسخرون من التذكير بالموت ويصفونه بعقيدة انتظار الموت ، **وهم يجهلون** أن انتظار الموت شعبة من شعب الإيمان قال رب العزة (**مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا**)

ولقد كان رأس أولياء هذه الأمة أبوبكر الصديق يستحضر انتظار الموت ،
روى البخاري أنه لما أصيب أبا بكر الصديق بحمى المدينة كان يقول

كل امرئ مصبح في أهله
والموت أدنى من شراك نعله

فالمؤمن مطالب لينجز ويحقق النهوض أن يعمل في كل أمر ويعمل في كل مجال من مجالات الحياة الدنيا ،

مع التساؤل الدائم : هل هذا العمل يقربني من الله ، هل هذا العمل سينفعني يوم القيامة سيعلي مقامي في الجنة سيحول بيني وبين النار ، أن يعيش حالة سماها القرآن بالإشفاق ،

(قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ)

فمن أكثر من ذكر الموت أكرم بثلاث: بتعجيل التوبة وقناعة القلب ونشاط العبادة